أثر العقيدة الوطنية
فى الإحسان إلى البائسين وتنظيم الإحسان

للأستاذ محمد أبو بكر ابراهيم
المفتش بالتعليم الثانوى بوزارة المعارف

من مشكلاتنا الاجتماعية الجديرة بالنظر مشكلة الاستجداء والتسول . وهى مشكلة قديمة تناولها الكثيرون بالبحث والعلاج غير مرة ، وعنيت بها الحكومة عناية كبيرة ، ولكن النتائج العملية طفيفة . وجاءت الأزمة الحاضرة فزادت الطين بله ، والمشكلة تعقيدا حتى أننا نرى عشرات من المتسولين يذرعون شوارع القاهرة ذهابا وإيابا ، ويفدون إلى المدن والقرى واحدا إثر آخر .

وليس يداخلنا شك فى أن جمهرة من هؤلاء الشحاذين مدعون متصنعون يتذرعون بكثير من الحيل ليستدروا عطف الجماهير عليهم ، وليفوزوا بالربح الوافر الذى لا يحلم به عامل أو صانع . حتى لقد استمرأوا هذه العادة الذميمة ، وجنحوا إلى البطالة والتعطل . فالشحاذة فى نظرهم خير من العمل . هؤلاء وأمثالهم يجب أن يحاربوا أينما تفقوا لأنهم عيال على المجدين العاملين . والحكومة كفيلة بأن تضرب على أيديهم ، وتضيق الخناق عليهم لتريح هذا المكابوس عن صدر الأمة ، فإذا ما وجد المتصنعون منهم أن بفاج الشحاذة قد سدت ، وأن أبواب التسول قد أغلقت ، وأن الحكومة جادة فى تعقبهم ومطاردتهم ، راحوا يتلمسون عملا يرتزقون منه . وفى هذا منفعة لهم وخير للناس .

هذا اقتراح بتنظيم الزكاة أظنه ناجحا نافعا وسهلا ميسورا ، يعين على تمييز القادرين من العاجزين — ورب الدار أدرى بما فيها — وهو يحقق الغرض من الزكاة ويغرس الألفة والمحبة بين الآخذ والمعطى : إذ يعرف الفقير أن سبب نعمته إنما هو من فضل الله عليه ومن جود الغنى المقيم معه فى قريته ، ويدرك أن سر سعادته راجع إلى إحسان المحسنين الذين يجاورونه فى مسكنه ويؤدون الحقوق المفروضة عليهم فى أموالهم — فلا يمتد بصره ولا تمتد يده إلى ثروة المثرين أو متاع المقتدرين فى بلدته حاسدا أو سارقا — وأشد ما يكون الحسد بين الأقارب والجيران — وبذلك يأمن أغنياء القرية شر فقرائها ، لأن هؤلاء قد أخذوا نصيبهم المعلوم ، وأولئك قد أدوا واجبهم المفروض فيعيشون فى وئام وسلام كأعضاء أسرة واحدة لا تباغض ولا تنافر . أما لو جمعت الزكاة جمعا عاما كما تجمع الضرائب الحكومية

بطريقة عامة لا تخصص فيها ، ووزعت كذلك على الفقراء بطريقة عامة فإنى أعتقد أنها تكون بذلك أشبه شيء بالرواتب المقررة فتضيع بعض فوائدها الخلقية والدينية والاجتماعية ، وتفقد الزكاة كثيرا من مزاياها التى أرادها الشرع الشريف فلا تتحقق الأغراض النبيلة التى أوضحناها .

وأعتقد أن خير طريقة لجمع الزكاة أن تجعل محلية موضعية فلا يجوز أن تجبى الزكاة من قريه لتصرف للفقراء فى قرية أخرى بل تتكون كل فى قرية وحدة مستقلة لها شخصيتها وميزانيتها وزكاتها ، ولها فقراؤها وأغنياؤها ، ولها أعضاؤها العاملون على جمع الزكاة وتوزيعها فيها . ذلك بأن يكون فى كل قرية جباة للزكاة من وجوه القوم المختارين منها ، ممن اشتهروا بحسن السيرة وصفاء السريرة . ويتم ذلك بانتخاب الأهلين أنفسهم لهؤلاء الأعضاء ؛ لأنهم أدرى بأحوالهم وأقدر على التعبير عن إرادتهم . ويقوم بالعمل الكتابى لهذا المجلس الخيرى واحد من الموظفين المقيمين ، ويقوم بأمانة الصندوق شخص من القرية له ضمان . ويكون عمل هؤلاء — غير جمع الزكاة — إحصاء الفقراء المعوزين فى نفس القرية ، وجعلهم طبقات متفاوتة بحسب حاجتهم وفقرهم . وتكون هذه الجماعة المختارة فى القرية مسئولة أمام الحكومة عن كل اهمال أو تقصير أو تزوير ولا بأس من مكافأتهم . حتى يقبلوا على عملهم بعناية ودقة ؛ إلا من تطوع منهم يريد وجه الله . وهذا نظام دقيق يكفى أنه من تشريع الله وهو أصدق تشريع . فقد جعلت الآية الكريمة للزكاة عمالا عليها ؛ يجمعونها من القادرين ، كما جعلت لهم نصيبا منها فقال جل شأنه " إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم .

أما العجزة من اليتامى والنساء وذوى العاهات الذين لا يجدون ما ينفقون ، ولا يستطيعون أن يؤدوا عملا من الأعمال ، لضعفهم وخورهم ، فهؤلاء جميعا أولى بالبر ، وأحرى بالرحمة والاحسان ، لأنهم مساكين مستضعفون ، ولأنهم اخواننا فى الدين شركاؤنا فى الوطن ، ولا يليق بالأخ أن يترك أخاه يتضور جوعا ويتلوى ألما ثم ينعم هو بالثراء العريض والغنى الواسع ، كما لا يجوز لأهل الوطن أن ينبذوا طائفة منهم تستندى لأكف بذلة وتتضرع . وطائفة أخرى منعهم الحياء من الطلب ، والخجل من السؤال ، فقنعوا فى دورهم ، ورضوا بالدون من العيش ، واليسير من القوت ، مما قد يجيئهم عفوا من كرم من يعرفون حالهم ، ويعلمون عوزهم ، وقد تمر بهم الأيام ولا يجدون ما يطعمون ، هؤلاء جريون بالاحسان والعطف ، وبقاؤهم فى شقائهم سبة لا ترضاها مصرنا الناهضة المتطلعة لمجد أرقى وعز أسمى فتركهم على هذه الحال السيئة ، تقصير وطنى ودينى وخلقى ، تقع تبعته على المترفين من

المصريين ، لأن الأديان السماوية قد حثت على مناصرة الضعفاء والبائسين ، وحضت على الزكاة والصدقة والاحسان كما جاء فى القرآن الكريم — وكما ورد فى غيره من الكتب المقدسة ونظام الله خير نظام ودستوره أبق دستور .

ولكن كيف تجمع الزكاة ؟ وكيف توزع ؟ وكيف تبنى على أساس متين ؟ هذه أسئلة قد ترددت على السنة المفكرين ، وجالت بخاطر الحكومة ، فأخذت وزارة الشؤون الاجتماعية تبحث فيها بحثا عميقا للوصول الى حلها حلا سليما ، وهى جادة فى وضع التصميمات الحكيمة والمشروعات الحازمة التى توصل الى طريقة قويمة ، فى جباية الزكاة ، وكيفية توزيعها بالوسائل النافعة الكفيلة بحسن التنفيذ .

أعرف قرى من قرى الفيوم تعد من أفقر القرى فى هذه المديرية قد هدى الله رجالها إلى تأليف جماعة منهم منذ عام تقريبا . وظيفتها جمع اشتراكات من القادرين فى القرية ، وأعضاؤها مختارون من أغنيائها ومن مدرسى التعليم الإلزامى فيها . وهؤلاء يعملون طواعية واختيارا وحبا فى إنهاض قريتهم وانتشال فقرائهم من براثن الفاقة والبؤس — فإذا ما أقبل عيد من الأعياد الدينية أو الوطنية رأيتهم يطوفون — فى حنان ورفق على العجزة واليتامى والأرامل يعطونهم بعض ما جمعوا من مال وكسوة — وإذا مات فقير فى القرية قاموا بتجهيزه ودفنه ؛ هذه القرية صارت أقل القرى فى الفيوم إجراما وأخلدها إلى السكينة والعمل والتقوى . ثم هذا فى هذه القرية — مع أن نظام جمعيتها مرتجل فطرى وعملها محدود ولا يعدو الطلب برفق ، فماذا يكون الحال لو عمم هذا النظام فى كل قرية من قرى مصر على شكل أكمل ونظام أتم — أظن أنه سيجىء من ورائه الفضل العميم ، والخير الكثير للأغنياء والفقراء على السواء .

ولا يفوتنى أن أذكر هنا مشكلة اليتامى من الأطفال الصغار فان هؤلاء إذا جرينا على إعطائهم الزكاة كما يعطى العجزة وذوو العاهات ألحقنا بهم ضررا جسيما ، ونشأت منهم ناشئة تعتاد الخمول والراحة وتشب على البطالة والكسل وتقعد عن العمل ، وتكره المرانة على صنعة تنفع فى المستقبل ؛ وعمل يجلب السعادة فى الحياة المقبلة . هؤلاء أعتقد أن خير وسيلة لتربيتهم ، وأجدى نظام لاعطائهم نصيبهم من الزكاة أن يجمع المال الذى يستحقونه ليعد لهم به عمل زراعى أو صناعى فى القرية نفسها ؛ ليكون لهم من هذا العمل خير تنشئة وأحسن إعداد ؛ فان الدين كما فرض الزكاة فرض العمل . حتى لا يستمرئ الناس لذة المال المجلوب لهم من غير تعب ، وحتى لا يتعودوا الخمول والكسل ، فقد حث الشرع على أن يكتسب الإنسان قوته إن استطاع لذلك سبيلا بكده وجده وعرق جبينه ، ووردت الآيات الكثيرة فى هذا المعنى فقال تعالى " فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَوٰةُ فَٱنتَشِرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَٱبْتَغُوا۟

مِنْ فَضْلِ ٱللَّهِ " وقال تعالى " فَٱمْشُوا فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ " فالدين بهذا الاتجاه قد وضع دستورا للنظام الاجتماعى ، حتى يعطى الموسر ما وجب عليه من الصدقات ، وحتى يقوم الفقير بما وجب عليه من العمل ، فلا يركن إلى الراحة والنوم اعتمادا على صدقات المحسنين وهبات المتعطفين .

ولا يسمى الاحسان احسانا بالمعنى الصحيح الا اذا صدر عن أريحية كريمة ، وعاطفة نبيلة ، ونفس صالحة ، وعقيدة دينية راسخة ، حتى يكون مؤسسا على خلق كريم ، ونزعة وطنية صادقة ، وفطرة قوية طاهرة ، فتنمو شجرة الزكاة فى تربة مصر ويمتد ظلها وارفا يتفيأ فيه المحرومون المستحقون ، فيكونون للأغنياء أصدقاء أوفياء يعرفون لهم جميلهم ، ويقدرونهم قدرهم ، والله يجزى المتصدقين .

محمد أبو بكر ابراهيم

من كلام الإمام على

إن لله عبادا يختصهم الله بالنعم لمنافع العباد فيقرها فى أيديهم مابذلوها ، فان منعوها نزعها منهم ثم حولها إلى غيرهم .

لاينبغى للعبد أن يثق بخصلتين : العافية ، والغنى ، بينا تراه معافى إذا سقم ، وبينا تراه غنيا إذ افتقر .